

الحكم والإمارة في العرب

حينما أردنا أن نتكلم عن أحوال العرب قبل الإسلام، رأينا أن نضع صورة مصغرة من تاريخ الحكومة والإمارة والملل والأديان في العرب، حتى يسهل علينا فهم الأوضاع الطارئة عند ظهور الإسلام.

كان حكام الجزيرة حين بزغت شمس الإسلام قسمين: قسم منهم ملوك متوجون، إلا أنهم في الحقيقة كانوا غير مستقلين، وقسم هم رؤساء القبائل والعشائر، لهم ما للملوك من الحكم والامتياز، ومعظم هؤلاء كانوا على تمام الاستقلال. وربما كانت لبعضهم تبعية لملك متوج، والملوك المتوجون هم ملوك اليمن، وملوك آل غسان، وملوك الحيرة، وما عدا هؤلاء من حكام الجزيرة فلم تكن لهم تيجان.

الملك باليمن:

من أقدم الشعوب التي عرفت باليمن من العرب العاربة قوم سبأ، وقد عثر على ذكرهم في حفريات «أور» بخمسة وعشرين قرناً قبل الميلاد. ويبدأ ازدهار حضارتهم ونفوذ سلطانهم وبسط سيطرتهم بأحد عشر قرناً قبل الميلاد.

ويمكن تقسيم أدوارهم حسب التقدير الآتي:

١- القرون التي خلت قبل سنة ٦٥٠ ق.م، وكان ملوكهم يلقبون في هذا الزمن بـ «مكرب سبأ» وكانت عاصمتهم بلدة «صرواح» التي توجد أنقاضها على مسافة يوم إلى الجانب الغربي من بلدة «مأرب» وتعرب باسم «خريبة» وفي زمنهم بدأ بناء السد الذي عرف بسد مأرب، والذي له شأن كبير في تاريخ اليمن، ويقال إن سبأ بلغوا من بسط سلطتهم إلى أن اتخذوا المستعمرات في داخل العرب وخارجها.

٢- منذ سنة ٦٥٠ ق.م إلى سنة ١١٥ ق.م وفي هذا الزمن تركوا لقب «مكرب» وعرفوا بملوك سبأ، واتخذوا «مأرب» عاصمة لهم بدل «صرواح» وتوجد أنقاضها على بعد ستين ميلاً من صنعاء إلى جانبها الشرقي.

٣ - منذ سنة ١١٥ ق.م إلى سنة ٣٠٠ م، وفي هذا العهد غلبت قبيلة حير على مملكة سبأ، واتخذت بلدة «ريدان» عاصمة لها بدل «مأرب». ثم سميت بلدة «ريدان» باسم ظفار، وتوجد أنقاضها على جبل مدور بالقرب من «يريم» وفي هذا العهد بدأ فيهم السقوط والانحطاط، فقد فشلت تجارتهم إلى حد كبير؛ لبسط سيطرة الأنباط في شمال الحجاز أولاً، ثم لغلبة الرومان على طرق التجارة البحرية بعد نفوذ سلطانهم على مصر وسوريا وشمالى الحجاز ثانياً، ولتنافس القبائل فيما بينها ثالثاً. وهذه العناصر هي التي سببت في تفرق آل قحطان وهجرتهم إلى البلاد الشاسعة.

٤ - منذ سنة ٣٠٠ م إلى أن دخل الإسلام في اليمن. وفي هذا العهد توالى عليهم الاضطرابات والحوادث، وتتابع الانقلابات، والحروب الأهلية التي جعلتهم عرضة للأجانب حتى قضت على استقلالهم. ففي هذا العهد دخل الرومان في عدن، وبمعونتهم احتلت الأحباش اليمن لأول مرة سنة ٣٤٠م، مستغلين التنافس بين قبيلتي همدان وحير، واستمر احتلالهم إلى سنة ٣٧٨م. ثم نالت اليمن استقلالها، ولكن بدأت تقع الثلمات في سد مأرب، حتى وقع السيل العظيم الذي ذكره القرآن بسيل العرم في سنة ٤٥٠م أو ٤٥١م. وكانت حادثة كبرى أدت إلى خراب العمران وتشتت الشعوب.

وفي سنة ٥٢٣م قاد ذو نواس اليهودي حملة منكرة على المسيحيين من أهل نجران، وحاول صرفهم عن المسيحية قسراً. ولما أبوا أخذ لهم الأخدود وألقاهم في النيران، وهذا الذي أشار إليه القرآن في سورة البروج بقوله: ﴿قتل أصحاب الأخدود﴾ الآيات، وكان من جراء ذلك نقمة النصرانية الناشطة إلى الفتح والتوسع تحت قيادة أمبراطور الرومان على بلاد العرب، فقد حرصوا الأحباش، وهياؤا لهم الأسطول البحري، فنزل سبعون ألف جندي من الحبشة، واحتلوا اليمن مرة ثانية، بقيادة أرياط سنة ٥٢٥م، وظل أرياط حاكماً من قبل ملك الحبشة حتى اغتاله أبرهة - أحد قواد جيشه - وحكم بدله بعد أن استرصى ملك الحبشة، وأبرهة هذا هو الذي جند الجنود لهدم الكعبة، وعرف هو وجنوده بأصحاب الفيل.

وبعد وقعة الفيل استنجد اليمانيون بالفرس، وقاموا بمقاومة الحبشة حتى أجلوهم عن البلاد، ونالوا الاستقلال في سنة ٥٧٥م بقيادة معد يكرب بن سيف ذي يزن الحميري، واتخذوه ملكاً لهم، وكان معد يكرب أبقى معه جمعاً من الحبشة يخدمونه ويمشون في ركابه، فاغتالوه ذات يوم، وبموته انقطع الملك عن بيت ذي يزن، وولى كسرى عاملاً

فارسيًا على صنعاء، وجعل اليمن ولاية فارسية فلم تزل الولاة من الفرس تتعاقب على اليمن حتى كان آخرهم باذان الذي اعتنق الإسلام سنة ٦٣٨ م. وبإسلامه انتهى نفوذ فارس على بلاد اليمن^(١).

الملك بالحيرة:

كانت الفرس تحكم على العراق وما جاورها منذ أن جمع شملهم قوروش الكبير (٥٥٧ - ٥٢٩ ق. م) ولم يكن أحد يناوئهم، حتى قام الإسكندر المقدوني سنة ٣٢٦ ق. م. فهرم ملكهم دارا الأول، وكسر شوكتهم، حتى تجزأت بلادهم وتولاها ملوك يعرفون بملوك الطوائف، واستمروا يحكمون البلاد مجزأة إلى سنة ٢٣٠ م. وفي عهد هؤلاء الملوك هاجر القحطانيون، واحتلوا جزءاً من ريف العراق ثم لحقهم من هاجر من العدنانيين فزاحوهم حتى سكنوا جزءاً من الجزيرة الفراتية.

وعادت القوة مرة ثانية إلى الفرس في عهد أردشير - مؤسس الدولة الساسانية منذ سنة ٢٢٦ م - فإنه جمع شمل الفرس، واستولى على العرب المقيمين على تخوم ملكه، وكان هذا سبباً في رحيل قضاة إلى الشام، ودان له أهل الحيرة والأنبار.

وفي عهد أردشير كانت ولاية جذيمة الواضح على الحيرة وسائر من بادية العراق وجزيرة من ربيعة ومضر، وكان أردشير رأى أنه يستحيل عليه أن يحكم العرب مباشرة، ويمنعهم من الإغارة على تخوم ملكه، إلا أن يملك عليهم رجلاً منهم له عصبية تؤيده وتمنعه، ومن جهة أخرى يمكنه الاستعانة بهم على ملوك الرومان الذين كان يتخوفهم، وليكون عرب العراق أمام عرب الشام الذين اصطنعهم ملوك الرومان، وكان يبقي عند ملك الحيرة كتيبة من جند الفرس؛ ليستعين بها على الخارجين على سلطانه من عرب البادية، وكان موت جذيمة حوالى سنة ٢٦٨ م.

وبعد موت جذيمة ولي الحيرة عمرو بن عدي بن لفر اللخمي، أول ملوك اللخمين - في عهد كسرى سابور بن أردشير - ثم لم تزل الملوك من اللخمين تتوالى على الحيرة حتى ولي الفرس قباذ بن فيروز، وفي عهده ظهر مزدك، وقام بالدعوة إلى الإباحية، فتبعه قباذ كما تبعه كثير من رعيته، ثم أرسل قباذ إلى ملك الحيرة - وهو المنذر بن ماء

(١) انظر في تفصيل ذلك: تفهيم القرآن ٤/١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، وتاريخ أرض القرآن ج ١/ من ص

١٣٣ إلى نهاية الكتاب، وفي تعيين السنين اختلاف كبير بين المصادر التاريخية، وقد قال بعض الكتاب

عن هذه التفاصيل: ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾

السما - يدعو إلى أن يختار هذا المذهب ويدين به ، فأبى عليه ذلك حمية وأنفة ، فعزله قباذ ، وولى بدله الخارث بن عمرو بن حجر الكندي بعد أن أجاب دعوته إلى المذهب المزدكي .

وخلف قباذ كسرى أنوشروان ، وكان يكره هذا المذهب جداً ، فقتل المزدك وكثيراً ممن دان بمذهبه ، وأعاد المنذر إلى ولاية الحيرة ، وطلب الخارث بن عمرو لكنه أفلت إلى دار كلب ، فلم يزل فيهم حتى مات .

واستمر الملك بعد المنذر بن ماء السماء في عقبه ، حتى كان النعمان بن المنذر ، وهو الذي غضب عليه كسرى بسبب وشاية دبرها زيد بن عدي العبادي ، وأرسل كسرى إلى النعمان يطلبه ، فخرج النعمان حتى نزل سراً على هانئ بن مسعود سيد آل شيان ، فأودعه أهله وماله ، ثم توجه إلى كسرى ، فحبسه كسرى حتى مات وولي على الحيرة بدله إياس بن قبيصة الطائي ، وأمره أن يرسل إلى هانئ بن مسعود يطلب منه تسليم ما عنده ، فأبى ذلك هانئ حمية ، وأذن الملك بالحرب ، ولم تلبث أن جاءت مرازية كسرى وكتائبه في موكب إياس ، وكانت بين الفريقين موقعة هائلة عند ذي قار ، وانتصر فيها بنو شيان ، وانهمزت الفرس هزيمة منكرة . وهذا أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم ، وهو بعد ميلاد الرسول ﷺ بقليل ، فإنه عليه السلام ولد لثمانية أشهر من ولاية إياس ابن قبيصة على الحيرة .

وولى كسرى على الحيرة بعد إياس حاكماً فارسياً ، وفي سنة ٦٣٢م عاد الملك إلى آل ختم ، فتولى منهم المنذر الملقب بالمرور ، ولم تزد ولايته على ثمانية أشهر حتى قدم عليه خالد بن الوليد بعساكر المسلمين^(١) .

الملك بالشام :

في العهد الذي ماجت فيه العرب بهجرات القبائل صارت بطون من قضاة إلى مشارف الشام وسكنت بها ، وكانوا من بني سليح بن حلوان الذين منهم بنو ضجعم بن سليح المعروفون باسم الضجاعمة ، فاصطنعهم الرومان ليمنعوا عرب البرية من العبث ، وليكونوا عدة ضد الفرس ، وولوا منهم ملكاً ، ثم تعاقب الملك فيهم سنين ، ومن أشهر ملوكهم زياد بن الهبولة ، ويقدر زمنهم من أوائل القرن الثاني الميلادي إلى نهاية تقريباً ،

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ٢٩/١ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ .

وانتهت ولايتهم بعد قدوم آل غسان، الذي غلبوا الضجاعة على ما بيدهم وانتصروا عليهم، فولتهم الروم ملوكاً على عرب الشام، وكانت قاعدتهم دومة الجندل، ولم تنزل تنو إلى الغساسنة على الشام بصفتهم عمالاً للملوك الروم حتى كانت وقعة اليرموك سنة ١٣ هـ، وانقاد للإسلام آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١).

الإمارة بالحجاز:

ولي إسماعيل عليه السلام زعامة مكة وولاية البيت طول حياته (٢). وتوفي وله ١٣٧ سنة (٣). ثم ولي إثنان من أبنائه نابت ثم قيدار، ويقال العكس، ثم ولي أمر مكة بعدها جدّها مضاض بن عمرو الجرهمي، فانتقلت زعامة مكة إلى جدهم، وظلت في أيديهم، وكان لأولاد إسماعيل مركز محترم؛ لما لأبيهم من بناء البيت، ولم يكن لهم من الحكم شيء (٤).

ومضت الدهور والأيام ولم يزل أمر أولاد إسماعيل عليه السلام ضئيلاً لا يذكر، حتى ضعف أمر جرهم قبيل ظهور بختنصر، وأخذ نجم عدنان السياسي يتألق في أفق سماء مكة منذ ذلك العصر، بدليل ما جاء بمناسبة غزو بختنصر للعرب في ذات عرق، فإن قائد العرب في الموقعة لم يكن جرهمياً (٥).

وتفرقت بنو عدنان إلى اليمن عند غزوة بختنصر الثانية (سنة ٥٨٧ ق.م)، وذهب بردياه النبي بمعد إلى الشام، فلما انكشف ضغط بختنصر رجع معهد إلى مكة فلم يجد من جرهم إلا جرشم بن جلهمة، فتزوج بابنته معانة فولدت له نزاراً (٦).

وساء أمر جرهم بمكة بعد ذلك، وضاقست أحوالهم، فظلموا الوافدين إليها، واستحلوا مال الكعبة (٧)، الأمر الذي كان يغيظ العدنانيين، ويشير حفيظتهم، ولما نزلت خزاعة بمر الظهران، ورأت نفور العدنانيين من الجراهمة استغلت ذلك، فقامت بمعونة

(١) نفس المصدر ٣٤/١، وأرض القرآن ٨٠/٢، ٨١، ٨٢.

(٢) قلب جزيرة العرب ص ٢٣٠ - ٢٣٧.

(٣) سفر التكوين ١٥: ١٧.

(٤) ٥، ٤) قلب جزيرة العرب ص ٢٣٠ - ٢٣٧، وابن هشام ١١١/١ - ١١٣، وذكر ابن هشام ولاية نابت فقط من أولاد إسماعيل عليه السلام.

(٦) رجة للعالمين ٤٨/٢.

(٧) قلب جزيرة العرب ص ٢٣١.

من بطون عدنان - وهم بنو بكر بن عبد مناف بن كنانة - بمحاربة جرحهم، حتى أجلتهم عن مكة، واستولت على حكمها، في أواسط القرن الثاني للميلاد.

ولما لجأت جرحهم إلى الجلاء سدوا بئر زمزم، ودرسوا موضعها، ودفنوا فيها عدة أشياء، قال ابن إسحاق: فخرج عمرو بن الحارث بن مضاض الجرحمي^(١) بغزالي الكعبة^(٢)، وبجحر الركن الأسود فدفنهما في بئر زمزم، وانطلق هو ومن معه من جرحهم إلى اليمن، فحزنوا على ما فارقوا من أمر مكة وملكها حزناً شديداً، وفي ذلك قال عمرو^(٣):

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العوثر
ويقدر زمن إسماعيل عليه السلام بعشرين قرناً قبل الميلاد، فتكون إقامة جرحهم في مكة واحداً وعشرين قرناً تقريباً، وحكمهم على مكة زهاء عشرين قرناً. واستبدت خزاعة بأمر مكة دون بني بكر، إلا أنه كان إلى قبائل مضر ثلاث خلال:

الأولى: الدفع بالناس من عرفة إلى المزدلفة، والإجازة بهم يوم النفر من منى، وكان يلي ذلك بنو الغوث بن مرة من بطون إلياس بن مضر، وكانوا يسمون صوفة ومعنى هذه الإجازة أن الناس كانوا لا يرمون يوم النفر حتى يرمي رجل من صوفة، ثم إذا فرغ الناس من الرمي، وأرادوا النفر من منى أخذت صوفة بجاني العقبة، فلم يجز أحد حتى يبروا، ثم يخلون سبيل الناس، فلما انقرضت صوفة ورثهم بنو سعد بن زيد مناة من تميم.

الثانية: الإفاضة من جمع غداة النحر إلى منى، وكان ذلك في بني عدوان.

الثالثة: إنساء الأشهر الحرم. وكان ذلك إلى بني تميم بن عدي من بني كنانة^(٤).

واستمرت ولاية خزاعة على مكة ثلاثمائة سنة^(٥). وفي وقت حكمهم انشتر

(١) هذا غير مضاض الجرحمي الأكبر الذي مضى ذكره في قصة إسماعيل عليه السلام.

(٢) قال المسعودي: وكانت الفرس تهدي إلى الكعبة أموالاً في صدر الزمان وجواهر، وقد كان ساسان بن

بابك أهدى غزاليين من ذهب وجواهر وسيوفاً وذهباً كثيراً فقذفه (عمرو) في بئر زمزم اهـ انظر

مروج الذهب ١/٣٠٥.

(٣) ابن هشام ١/١١٤ - ١١٥.

(٤) ابن هشام ١/٤٤ - ١١٩ - ١٢٠ - ١٢٢.

(٥) معجم البلدان لياقوت مادة مكة.

العدنانيون في نجد وأطراف العراق والبحرين، وبقي بأطراف مكة بطون من قريش وهم حلول وحرم، وبيوتات متفرقون في قومهم من بني كنانة، وليس لهم من أمر مكة ولا البيت الحرام شيء حتى جاء قصي بن كلاب^(١).

ويذكر من أمر قصي أن أباه مات وهو في حضن أمه، ونكحت أمه رجلاً من بني عذرة - وهو ربيعة بن حرام - فاحتلمها إلى بلاده بأطراف الشام، فلما شب قصي رجع إلى مكة، وكان واليها إذ ذاك حليل بن حبشة من خزاعة، فخطب قصي إلى حليل ابنته حبي، فرغب فيه حليل وزوجه إياها^(٢) فلما مات حليل قامت حرب بين خزاعة وقريش أدت أخيراً إلى تغلب قصي على أمر مكة والبيت.

وهناك ثلاث روايات في بيان سبب هذه الحرب.

الأولى: أن قصياً لما انتشر ولده وكثر ماله وعظم شرفه وهلك حليل رأى أنه أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة وبني بكر، وأن قريشاً رؤوس آل إسماعيل وصريرهم، فكلم رجلاً من قريش وبني كنانة في إخراج خزاعة وبني بكر عن مكة فأجابوه^(٣)

الثانية: أن حليلاً - فيما تزعم خزاعة - أوصى قصياً بالقيام على الكعبة وبأمر مكة^(٤).

الثالثة: أن حليلاً أعطى ابنته حبي ولاية البيت، واتخذ أباً غبشان الخزاعي وكيلاً لها، فقام أبو غبشان بسدانة الكعبة نيابة عن حبي، فلما مات حليل اشترى قصي ولاية البيت من أبي غبشان بزق من الخمر، ولم ترض خزاعة بهذا البيع، وحاولوا منع قصي عن البيت، فجمع قصي رجلاً من قريش وبني كنانة لإخراج خزاعة من مكة، فأجابوه^(٥).

وأيا ما كان، فلما مات حليل وفعلت صوفة ما كانت تفعل أتاهاهم قصي بمن معه من قريش وكنانة عند العقبة فقال: نحن أولى بهذا منكم، فقاتلوه فغلبهم قصي على ما كان بأيديهم، وانحازت عند ذلك خزاعة وبنو بكر عن قصي، فبدأهم قصي، وأجمع لحربهم،

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ٣٥/١، وابن هشام ١١٧/١.

(٢) ابن هشام ١١٧/١ - ١١٨.

(٣) نفس المصدر ١١٧/١ - ١١٨.

(٤) نفس المصدر ١٨٨/١.

(٥) راحة للعالمين ٥٥/٢.

فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً، صار جمع من الفريقين فريسة له، ثم تداعوا إلى الصلح فحكموا يعمر بن عوف أحد بني بكر، فقصى بأن قصياً أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة، وكل دم أصابه قصي منهم موضوع بشدخه تحت قدميه، وما أصابت خزاعة وبنو بكر ففيه الدية، وأن يخلى بين قصي وبين الكعبة - فسمى يعمر يومئذ الشداخ^(١) - وكان استيلاء قصي على مكة والبيت في أواسط القرن الخامس للميلاد سنة ٤٤٠ م^(٢) وبذلك صارت لقصي، ثم لقريش السيادة التامة، والأمر النافذ في مكة، وصار الرئيس الديني لذلك البيت الذي كانت تفد إليه العرب من جميع أنحاء الجزيرة.

ومما فعله قصي بمكة أنه جمع قومه من منازلهم إلى مكة، وقطعها رباعاً بين قومه، وأنزل كل قوم من قريش منازلهم التي أصبحوا عليها، وأقر النساء وآل صفوان، وعدوان ومرة بن عوف على ما كانوا عليه من المناصب؛ لأنه كان يراه ديناً في نفسه لا ينبغي تغييره^(٣).

ومن مآثر قصي أنه أسس دار الندوة بالجانب الشمالي من مسجد الكعبة، وجعل بابها إلى المسجد، وكانت مجمع قريش، وفيها تفصل مهام أمورها، ولهذا الدار فضل على قريش؛ لأنها ضمنت اجتماع الكلمة وفض المشاكل بالحسنى^(٤).

وكان لقصي من مظاهر الرياسة والتشريف:

١ - رياسة دار الندوة، ففيها كانوا يتشاورون فيما نزل بهم من جسام الأمور، ويزوجون فيها بناتهم.

٢ - اللواء، فكانت لا تعقد راية الحرب إلا بيده.

٣ - الحجابة وهي حجابة الكعبة، لا يفتح بابها إلا هو، وهو الذي يلي أمر خدمتها وسدانتها.

٤ - سقاية الحاج، وهي أنهم كانوا يملأون للحجاج حياضاً من الماء، يخلونها بشيء من التمر والزبيب، فيشرب الناس منها إذا وردوا مكة^(٥).

(١) ابن هشام ١٢٣/١ - ١٢٤.

(٢) قلب جزيرة العرب ص ٢٣٢.

(٣) ابن هشام ١٢٤/١ - ١٢٥.

(٤) ابن هشام ١٢٥/١، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ٣٦/١، وأخبار الكرام ص ١٥٢.

(٥) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ٣٦/١.

٥ - رفاة الحاج، وهي طعام كان يصنع للحاج على طريقة الضيافة، وكان قصي فرض على قريش خرجاً تخرجه في الموسم من أمواها إلى قصي، فيضع به طعاماً للحاج، يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد^(١).

وكان كل ذلك لقصي، وكان ابنه عبد مناف قد شرف وساد في حياته، وكان عبد الدار بكرة، فقال له قصي: لأحقنك بالقوم وإن شرفوا عليك، فأوصى له بما كان يليه من مصالح قريش، فأعطاه دار الندوة والحجابه واللواء والسقاية والرفادة، وكان قصي لا يخالف ولا يرد عليه شيء صنع، وكان أمره في حياته وبعد موته كالدين المتبع، فلما هلك أقام بنوه أمر لا نزاع بينهم، ولكن لما هلك عبد مناف نafs أبناؤه بني عمهم عبد الدار في هذه المناصب، وافتقرت قريش فرقتين، وكاد يكون بينهم قتال، إلا أنهم تداعوا إلى الصلح، واقتسموا هذه المناصب، فصارت السقاية والرفادة إلى بني عبد مناف، وبقيت دار الندوة واللواء والحجابه بيد بني عبد الدار، ثم حكم بنو عبد مناف القرعة فيما أصابهم فخرجت هاشم بن عبد مناف، فكان هو الذي يلي السقاية والرفادة طول حياته، فلما مات خلفه أخوه المطلب بن عبد مناف، وولي بعده عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف جد رسول الله ﷺ، وبعده أبناؤه حتى جاء الإسلام والولاية إلى العباس بن عبد المطلب^(٢).

وكانت لقريش مناصب سوى ذلك وزعوها فيما بينهم، وكونوا بها دويلة - بل تتعبر أصح: شبه دويلة ديمقراطية. وكانت لها من الدوائر والتشكيلات الحكومية ما شبه في عصرنا هذا دوائر البرلمان ومجالسها، وهاك لوحة من تلك المناصب:

- ١ - الإيسار، أي تولية قدام الأضنام للاستقسام، كان ذلك في بني جمح.
- ٢ - تحجير الأموال، أي نظم القربات والنذور التي تهدي إلى الأضنام، وكذلك فصل الخصومات والمرافعات. كان ذلك في بني سهم.
- ٣ - الشورى، كانت في بني أسد.
- ٤ - الأشناق، أي نظم الديات والغرامات، كان ذلك في بني تيم.
- ٥ - العقاب، أي حمل اللواء القومي، كانت ذلك في بني أمية.
- ٦ - القبة، أي نظم المعسكر، وكذلك قيادة الخيل، كانت في بني مخزوم.

(١ و ٢) ابن هشام ١٣٠/١ وما بعدها.

٧ - السفارة، كانت في بني عدي^(١).

الحكم في سائر العرب:

قد سبق لنا أن ذكرنا هجرات القبائل القحطانية والعدنانية، وأن البلاد العربية اقتسمت فيما بينها، فما كان من هذه القبائل بالقرب من الحيرة كانت تبعاً لملك العرب بالحيرة، وما كان منها في بادية الشام كانت تبعاً للغساسنة، إلا أن هذه التبعية كانت اسمية لا فعلية. وأما ما كان منها في البوادي في داخل الجزيرة فكانت حرة مطلقة.

وفي الحقيقة كان لهذه القبائل رؤساء تسودهم القبيلة، وكانت القبيلة حكومة مصغرة أساس كيانها السياسي الوحدة العصبية، والمنافع المتبادلة في حماية الأرض ودفع العدوان عنها.

وكانت درجة رؤساء القبائل في قومهم كدرجة الملوك، فكانت القبيلة تبعاً لرأي سيدها في السلم والحرب، لا تتأخر عنه بحال، وكان له من الحكم والاستبداد بالرأي ما يكون لدكتاتور قوي، حتى كان بعضهم إذا غضب غضب له ألوف من السيوف لا تسأله فيما غضب، إلا أن المنافسة في السيادة بين أبناء العم كانت تدعوهم إلى المصانعة بالناس، من بذل الندى، وإكرام الضيف، والكرم، والحلم وإظهار الشجاعة، والدفاع عن الغير؛ حتى يكسبوا المحامد في أعين الناس، ولا سيما الشعراء الذين كانوا لسان القبيلة في ذلك الزمان، وحتى تسمو درجاتهم عن مستوى المنافسين.

وكان للسادة والرؤساء حقوق خاصة، فكانوا يأخذون من الغنيمة المربع والصفى والنشيطه والفضول، يقول الشاعر:

لك المربع فينا والصفايا وحكمك والنشيطه والفضول
والمربع: ربع الغنيمة، والصفى: ما يصفيه الرئيس لنفسه قبل القسمة، والنشيطه: ما أصاب الرئيس في الطريق قبل أن يصل إلى بيضة القوم. والفضول: ما فضل من القسمة مما لا تصح قسمته على عدد الغزاة، كالبعير والغرس ونحوهما.

الحالة السياسية:

قد ذكرنا حكام العرب، والآن آن لنا أن نذكر جملة من أحوالهم السياسية، فالأقطار الثلاثة التي كانت مجاورة للأجانب كانت حالتها السياسية في تضعف وانحطاط

(١) تاريخ أرض القرآن ٢/١٠٤، ١٠٥، ١٠٦.

لا مزيد عليه ، فقد كان الناس بين سادة وعبيد ، أو حكام وحكومين ، فالسادة - ولا سيما الأجانب - لهم كل الغنم ، والعبيد عليهم كل الغرم ، وبعبارة أوضح إن الرعايا كانت بمثابة مزرعة تورد المحصولات إلى الحكومات ، فتستخدمها في ملذاتها وشهواتها ، ورغائبها ، وجورها ، وعدوانها . أما الناس فهم في عمايتهم يتخبطون ، والظلم ينحط عليهم من كل جانب وما في استطاعتهم التذمر والشكوى ، بل هم يسامون الخسف ، والجور ، والعذاب ألواناً ساكتين ، فقد كان الحكم استبدادياً ، والحقوق ضائعة مهدورة ، والقبائل المجاورة لهذه الأقطار مذذبون تتقاذفهم الأهواء والأغراض ، مرة يدخلون في أهل العراق ، ومرة يدخلون في أهل الشام . وكانت أحوال القبائل داخل الجزيرة مفككة الأوصال ، تغلب عليها المنازعات القبلية والاختلافات العنصرية والدينية حتى قال ناطقهم :

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت ، وإن ترشد غزية أرشد
ولم يكن لهم ملك يدعم استقلالهم ، أو مرجع يرجعون إليه ، ويعتمدون عليه وقت
الشدائد .

وأما حكومة الحجاز ؛ فقد كانت تنظر إليها العرب نظرة تقدير واحترام ، ويرونها قادة وسدنة المركز الديني ، وكانت تلك الحكومة في الحقيقة خليطاً من الصدارة النبوية والحكومية والزعامة الدينية ، حكمت بين العرب باسم الزعامة الدينية ، وحكمت في الحرم وما والاها بصفتها حكومة تشرف على مصالح الوافدين إلى البيت ، وتنفذ حكم شريعة إبراهيم ، وكانت لها من الدوائر والتشكيلات ما يشابه دوائر البرلمان - كما أسلفنا - ولكن هذه الحكومة كانت ضعيفة لا تقدر على حمل العبء كما وضح يوم غزو الأحباش .

ديانات العرب

كان معظم العرب اتبعوا دعوة إسماعيل - عليه السلام - حين دعاهم إلى دين أبيه إبراهيم - عليه السلام - فكانت تعبد الله وتوحده وتدين بدينه، حتى طال عليهم الأمد ونسوا حظاً مما ذكروا به، إلا أنهم بقي فيهم التوحيد وعدة شعائر من دين إبراهيم، حتى جاء عمرو بن لحي رئيس خزاعة، وكان قد نشأ على أمر عظيم من المعروف والصدقة والحرص على أمور الدين، فأحبه الناس، ودانوا له ظناً منهم أنه من أكابر العلماء وأفاضل الأولياء، ثم إنه سافر إلى الشام، فرآهم يعبدون الأوثان، فاستحسن ذلك وظنه حقاً، لأن الشام محل الرسل والكتب، فقدم معه بهبل وجعله في جوف الكعبة، ودعا أهل مكة إلى الشرك بالله، فأجابوه. ثم لم يلبث أهل الحجاز أن تبعوا أهل مكة، لأنهم ولاة البيت وأهل الحرم^(١).

ومن أقدم أصنامهم مناة، كانت بالمثل على ساحل البحر الأحمر بالقرب من قديد، ثم اتخذوا اللات في الطائف، ثم اتخذوا العزى بوادي نخلة، هذه الثلاث أكبر أوثانهم، ثم كثر الشرك، وكثرت الأوثان في كل بقعة من الحجاز، ويذكر أن عمرو بن لحي كان له رثي من الجن، فأخبره بأن أصنام قوم نوح - ودأ وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً - مدفونة بجدة فأتاها فاستثارها، ثم أوردها إلى تهامة، فلما جاء الحج دفعها إلى القبائل، فذهبت بها إلى أوطانها، حتى صار لكل قبيلة ثم في كل بيت صنم. وقد ملأوا المسجد الحرام بالأصنام، ولما فتح رسول الله ﷺ مكة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنماً، فجعل يطعنهما حتى تساقطت، ثم أمر بها فأخرجت من المسجد وحرقت^(٢).

وهكذا صار الشرك وعبادة الأصنام أكبر مظهر من مظاهر دين أهل الجاهلية، الذين كانوا يزعمون أنهم على دين إبراهيم.

(١) مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ١٢.

(٢) صحيح البخاري ١/٢٢٢.

(٣) مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ١٣، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٤.

وكانت لهم تقاليد ومراسم في عبادة الأصنام، ابتدع أكثرها عمرو بن لحي، وكانوا يظنون أن ما أحدثه عمرو بن لحي بدعة حسنة، وليس بتغيير لدين إبراهيم فكان من مراسم عبادتهم للأصنام أنهم:

- ١ - كانوا يعكفون عليها، ويلتجئون إليها.. ويهتفون بها، ويستغيثونها في الشدائد، ويدعونها لحاجاتهم، معتقدين أنها تشفع عند الله، وتحقق لهم ما يريدون.
- ٢ - وكانوا يحجون إليها ويطوفون حولها، ويتذللون عندها، ويسجدون لها.
- ٣ - وكانوا يتقربون إليها بأنواع من القرابين، فكانوا يذبحون وينحرون لها وبأسائها.

وهذان النوعان من الذبح ذكرهما الله تعالى في قوله: ﴿وما ذبح على النصب﴾ [٥: ٣]، وفي قوله: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾ [٦: ١٢١].

٤ - وكان من أنواع التقرب أنهم كانوا يخصون للأصنام شيئاً من مآكلهم ومشاربهم حسبما يبدو لهم، وكذلك كانوا يخصون لها نصيباً من حرثهم وأنعامهم. ومن الطرائف أنهم كانوا يخصون من ذلك جزءاً لله أيضاً، وكانت عندهم أسباب كثيرة ما كانوا ينقلون لأجلها إلى الأصنام ما كان لله، ولكن لم يكونوا ينقلون إلى الله ما كان لأصنامهم بحال. قال تعالى: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم، ساء ما يحكمون﴾ [٦: ١٣٦].

٥ - وكان من أنواع التقرب إلى الأصنام النذر في الحرث والأنعام، قال تعالى: ﴿وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم، وأنعام حرمت ظهورها، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه﴾ [٦: ١٣٨].

٦ - وكانت منها البهيرة والسائبة والوصيلة والحامي. قال ابن إسحاق: البهيرة بنت السائبة، هي الناقة إذا تابعت بين عشر إناث ليس بينهم ذكر سييت، فلم يركب ظهرها، ولم يجز وبرها، ولم يشرب لبنها إلا ضيف، فما نتجت بعد ذلك من أنثى شقت أذنبا، ثم خلى سيلها مع أمها، فلم يركب ظهرها، ولم يجز وبرها، ولم يشرب لبنها إلا ضيف، كما فعل بأمها. فهي البهيرة بنت السائبة. والوصيلة: الشاة إذا أنامت عشر إناث متتابعات في خمسة أبطن ليس بينهم ذكر جعلت وصيلة. قالوا: قد وصلت، فكان ما ولد بعد ذلك للذكور منهم دون إناثهم إلا أن يموت شيء فيشارك في أكله ذكورهم وإناثهم.

والحامي: الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر حي ظهره، فلم يركب، ولم يجز وبره، وخلي في إبله يضرب فيها، لا ينتفع منه بغير ذلك، وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة، ولا وصيلة، ولا حام، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب، وأكثرهم لا يعقلون﴾ [١٠٣: ٥]، وأنزل: ﴿وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا، وإن يكن مئمة فهم فيه شركاء﴾ [١٣٩: ٦]، وقيل في تفسير هذه الأنعام غير ذلك^(١).

وقد صرح سعيد بن المسيب أن هذه الأنعام كانت لطواغيتهم^(٢) وفي الصحيح مرفوعاً: أن عمرو بن لحي أول من سيب السوائب^(٣).

كانت العرب تفعل كل ذلك بأصنامهم، معتقدين أنها تقربهم إلى الله وتوصلهم إليه، وتشفع لديه كما في القرآن: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ [٣: ٣٩]، ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ [١٨: ١٠].

وكانت العرب تستقسم بالأزلام، والزلم: القدح الذي لا ريش عليه، وكانت الأزلام ثلاثة أنواع: نوع فيه «نعم» و«لا» كانوا يستقسمون بها فيما يريدون من العمل من نحو السفر والنكاح وأمثالها. فإن خرج «نعم» عملوا به وإن خرج «لا» أخروه عامه ذلك حتى يأتوه مرة أخرى، ونوع فيه المياه والدية، ونوع فيه «منكم» أو «من غيركم» أو «ملصق» فكانوا إذا شكوا في نسب أحدهم ذهبوا به إلى هبل، وبمائة جزور، فأعطوها صاحب القداح. فإن خرج «منكم» كان منهم وسيطاً، وإن خرج عليه «من غيركم» كان حليفاً، وإن خرج عليه «ملصق» كان على منزلته فيهم، لا نسب ولا حلف^(٤).

ويقرب من هذا الميسر والقداح، وهو ضرب من ضروب القمار، وكانوا يقتسمون به لحم الجزور التي يذبحونها بحسب القداح.

وكانوا يؤمنون بأخبار الكهنة والعرافين والمنجمين، والكاهن: هو من يتعاطى الإخبار عن الكوائن في المستقبل، ويدعي معرفة الأسرار، ومن الكهنة من يزعم أن له

(١) ابن هشام ١/٨٩، ٩٠.

(٢) صحيح البخاري ١/٤٩٩.

(٣) نفس المصدر.

(٤) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١/٥٦، وابن هشام ١/١٥٢، ١٥٣.

تاعاً من الجن يلقي عليه الأخبار، ومنهم من يدعي إدراك الغيب بفهم أعطيه، ومنهم من يدعي معرفة الأمور بمقدمات وأسباب يستدل بها على مواقعها من كلام من يسأله أو فعله أو حاله، وهذا القسم يسمى عرفاً، كمن يدعي معرفة المسروق ومكان السرقة والضالة ونحوهما. والمنجم: من ينظر في النجوم أي الكواكب، ويحسب سيرها ومواقيتها، ليعلم بها أحوال العالم وحوادثه التي تقع في المستقبل^(١) والتصديق بأخبار المنجمين هو في الحقيقة إيمان بالنجوم، وكان من إيمانهم بالنجوم الإيمان بالأنواء، فكانوا يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا^(٢).

وكانت فيهم الطيرة (بكسر ففتح) وهي التشاؤم بالشيء، وأصله أنهم كانوا يأتون الطير أو الظبي فينفرونه، فإن أخذ ذات اليمين مضوا إلى ما قصدوا، وعدوه حسناً، وإن أخذ ذات الشمال انتهوا عن ذلك وتشاءموا، وكانوا يتشاءمون كذلك إن عرض الطير أو الحيوان في طريقهم.

ويقرب من هذا تعليقهم كعب الأرنب، والتشاؤم ببعض الأيام والشهور والحيوانات ولدور والنساء، والاعتقاد بالعدوى والهامة، فكانوا يعتقدون أن المقتول لا يسكن جأشه ما لم يؤخذ بثأره، وتصير روحه هامة أي بومة تطير في الفلوات وتقول: صدى صدى أو أسقوني أسقوني، فإذا أخذ بثأره سكن واستراح^(٣).

كان أهل الجاهلية على ذلك وفيهم بقايا من دين إبراهيم ولم يتركوه كله، مثل تعظيم البيت والطواف به، والحج، والعمرة، والوقوف بعرفة، والمزدلفة وإهداء البدن، نعم ابتدعوا في ذلك بدعاً.

منها أن قريشاً كانوا يقولون: نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم، وولاية البيت وقاطنو مكة، وليس لأحد من العرب مثل حقنا ومنزلتنا - وكانوا يسمون أنفسهم الخمس - فلا ينبغي لنا أن نخرج من الحرم إلى الحل، فكانوا لا يقفون بعرفة، ولا يفيضون منها، وإنما كانوا يفيضون من المزدلفة وفيهم أنزل: ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ [١٩٩: ٢]^(٤).

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٢/٢، ٣.

(٢) أنظر صحيح مسلم مع شرحه للنووي، باب بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء، من كتاب الإيمان ١/٥٩.

(٣) انظر صحيح البخاري ٢/٨٥١، ٨٥٧ مع حواشيه للشيخ أحمد على السهارة نفوري.

(٤) ابن هشام ١/١٩٩، صحيح البخاري ١/٢٢٦.

ومنها أنهم قالوا: لا ينبغي للحمس أن يغطوا الأقط ولا يسلبوا السمن، وهم حرم، ولا يدخلوا بيتاً من شعر، ولا يستظلوا إن استظلوا إلا في بيوت الأدم ماداموا حرماً^(١).

ومنها أنهم قالوا: لا ينبغي لأهل الخل أن يأكلوا من طعام جاؤوا به من الخل إلى الحرم إذا جاؤوا حجاجاً أو عماراً^(٢).

ومنها أنهم أمروا أهل الخل أن لا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الخمس، فإن لم يجدوا شيئاً فكان الرجال يطوفون عراة، وكانت المرأة تضع ثيابها كلها إلا درعاً مفرجاً ثم تطوف فيه وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

وأنزل الله في ذلك: ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ [٧: ٣١]، فإن تكرم أحد من الرجل والمرأة فطاف في ثيابه التي جاء بها من الخل ألقاها بعد الطواف، ولا ينتفع بها هؤلاء، ولا أحد غيره^(٣).

ومنها أنهم كانوا لا يأتون بيوتهم من أبوابها في حال الإحرام، بل كانوا ينقبون في ظهور البيوت نقباً يدخلون ويخرجون منه، وكانوا يحسبون ذلك الجفاء براً وقد منعه القرآن [٢: ١٨٩].

كانت هذه الديانة - ديانة الشرك وعبادة الأوثان، والاعتقاد بالوهميات والخرافات - ديانة معظم العرب، وقد وجدت اليهودية، والمسيحية، والمجوسية والصابئية سبيلاً للدخول في ربوع العرب.

ولليهود دوران - على الأقل - مثلوهما في جزيرة العرب:

الأول: هجرتهم في عهد الفتوح البابلية والأشورية في فلسطين، فقد نشأ عن الضغط على اليهود، وعن تخريب بلادهم وتدمير هيكلهم على يد الملك بختنصر سنة ٥٨٧ ق.م. وسي أكثرهم إلى بابل أن قسماً منهم هجر البلاد الفلسطينية إلى الحجاز، وتوطن في ربوعها الشمالية^(٤).

الدور الثاني: يبدأ من احتلال الرومان لفلسطين بقيادة بتطس الروماني سنة ٧٠ م،

(٤) قلب جزيرة العرب، ص ١٥١.

(١ و ٢) نفس المصدر الأول ٢٠٢/١.

(٣) ابن هشام ٢٠٢/١، ٢٠٣، وصحيح البخاري ٢٢٦/١.

فقد نشأ عن ضغط الرومان على اليهود، وعن تخريب الهيكل وتدميره أن قبائل عديدة من اليهود رحلت إلى الحجاز، واستقرت في يثرب وخيبر وتيها، وأنشأت فيها القرى والآطام والقلاع، وانتشرت الديانة اليهودية بين قسم من العرب عن طريق هؤلاء المهاجرين، وأصبح لها شأن يذكر في الحوادث السياسية التي سبقت ظهور الإسلام، والتي حدثت في صدره. وحينما جاء الإسلام كانت القبائل اليهودية المشهورة هي: خيبر والنضير والمصطلق وقريظة وقينقاع، وذكر السهمودي في وفاء الوفا (ص ١١٦) أن عدد القبائل اليهودية يزيد على عشرين^(١).

ودخلت اليهودية في اليمن من قبل تiban أسعد أبي كرب، فإنه ذهب مقاتلاً إلى يثرب واعتنق هناك اليهودية وجاء بمجبرين من بني قريظة إلى اليمن، فأخذت اليهودية إلى التوسع والانتشار فيها، ولما ولي اليمن بعده ابنه يوسف ذو نواس هجم على المسيحيين من هل نجران ودعاهم إلى اعتناق اليهودية، فلما أبوا خذ لهم الأخدود، وأحرقهم بالنار، ولم يفرق بين الرجل والمرأة والأطفال الصغار والشيوخ الكبار، ويقال إن عدد المقتولين ما بين عشرين ألفاً إلى أربعين ألفاً، وقع ذلك في أكتوبر سنة ٥٢٣ م^(٢). وقد أورد القرآن جزءاً من هذه القصة في سورة البروج.

أما الديانة النصرانية فقد جاءت إلى بلاد العرب عن طريق احتلال الحبشة والرومان، وكان أول احتلال الحبشة لليمن سنة ٣٤٠ م، واستمر إلى سنة ٣٧٨ م^(٣)، وفي ذلك الزمان دخل التبشير المسيحي في ربوع اليمن، وبالقرب من هذا الزمان دخل رجل زاهد مستجاب الدعوات وصاحب كرامات - وكان يسمى فيميون - إلى نجران، ودعاهم إلى الدين المسيحي، ورأى أهل نجران من أمارات صدقه وصدق دينه ما لبوا لأجله المسيحية واعتنقوها^(٤).

ولما احتلت الأحباش اليمن كرد فعل لما أتاه ذو نواس، وتمكن أبرهة من حكومتها، أخذ ينشر الديانة المسيحية بأوفر نشاط، وأوسع نطاق، حتى بلغ من نشاطه أنه بنى كعبة باليمن، وأراد أن يصرف حج العرب إليها، ويهدم بيت الله الذي بمكة، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى.

(١) قلب جزيرة العرب، ص ١٥١.

(٢) تفهيم القرآن ٢٩٧/٦، وابن هشام ٢٠/١، ٢١، ٢٢، ٢٧، ٣١، ٣٥، ٣٦.

(٣) تفهيم القرآن ٢٩٧/٦.

(٤) انظر في ذلك مفصلاً ابن هشام ٣١/١، ٣٢، ٣٣، ٣٤.

وقد اعتنق النصرانية العرب الغساسنة وقبائل تغلب وطيء وغيرها لمجاورة الرومان، بل قد اعتنقها بعض ملوك الحيرة.

أما المجوسية فكان معظمها في العرب الذين كانوا بجوار الفرس، فكانت في عراق العرب وفي البحرين - الأحساء - وهجر وما جاورها من منطقة سواحل الخليج العربي، ودان لها رجال من اليمن في زمن الاحتلال الفارسي.

أما الصابئية فقد دلت الحفريات والتنقيبات في بلاد العراق وغيرها أنها كانت ديانة قوم إبراهيم الكلدانيين، وقد دان بها كثير من أهل الشام، وأهل اليمن في غابر الزمان، وبعد تتابع الديانات الجديدة من اليهودية والنصرانية تضعضع بنيان الصابئية وخذ نشاطها، ولكن لم يزل في الناس بقايا من أهل هذه الديانة مختلطين مع المجوس، أو مجاورين لهم، في عراق العرب، وعلى شواطئ الخليج العربي^(١).

الحالة الدينية:

كانت هذه الديانات هي ديانات العرب حين جاء الإسلام، وقد أصاب هذه الديانات الانحلال والبوار، فالمشركون الذين كانوا يدعون أنهم على دين إبراهيم كانوا بعيدين عن أوامر ونواهي شريعة إبراهيم، مهملين ما أتت به من مكارم الأخلاق. فكثرت معاصيهم، ونشأ فيهم على توالي الزمان ما ينشأ في الوثنيين من عادات وتقاليد تجري مجرى الحرافات الدينية، وأثرت في الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية تأثيراً بالغاً جداً.

أما اليهود فقد انقلبت رياء وتحكماً، وصار رؤساؤها أرباباً من دون الله، يتحكمون في الناس ويحاسبونهم حتى على خطرات النفس وهمسات الشفاه، وجعلوا همهم الحظوة بالمال والرياسة، وإن ضاع الدين وانتشر الإلحاد والكفر والتهاون بالتعاليم التي حض الله عليها وأمر كل فرد بتقديسها.

وأما النصرانية فقد عادت وثنية عسرة الفهم، وأوجدت خلطاً عجيباً بين الله والإنسان، ولم يكن لها في نفوس العرب المتدينين بهذا الدين تأثير حقيقي، لبعد تعاليمها عن طراز المعيشة التي ألفوها، ولم يكونوا يستطيعون الابتعاد عنها.

وأما سائر أديان العرب فكانت أحوال أهلها كأحوال المشركين، فقد تشابهت قلوبهم، وتواردت عقائدهم، وتوافقت تقاليدهم وعوائدهم.

(١) تاريخ أرض القرآن ١٩٣/٢ إلى ٢٠٨.

صور من المجتمع العربي

بعد البحث عن سياسة الجزيرة وأديانها ؛ بقي لنا أن نتكلم حول الأحوال الاجتماعية ، والاقتصادية ، والخلقية ، وفيما يلي بيانها بإيجاز :

الحالة الاجتماعية :

كانت في العرب أوساط متنوعة ، تختلف أحوال بعضها عن بعض ، فكانت علاقة الرجل مع أهله في الأشراف على درجة كبيرة من الرقي والتقدم ، وكان لها من حرية الإرادة ونفاذ القول القسط الأوفر ، وكانت محترمة مصونة تسل دونها السيوف ، وتراق الدماء ، وكان الرجل إذا أراد أن يمتدح بما له في نظر العرب المقام السامي من الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب في أكثر أوقاته إلا المرأة ، وربما كانت المرأة إذا شاءت جمعت القبائل للسلام ، وإن شاءت أشعلت بينهم نار الحرب والقتال ، ومع هذا كله فقد كان الرجل يعتبر بلا نزاع رئيس الأسرة ، وصاحب الكلمة فيها ، وكان ارتباط الرجل بالمرأة بعقد الزواج تحت إشراف أوليائها ولم يكن من حقها أن تفتت عليهم .

بينما هذه حال الأشراف ، كان هناك في الأوساط الأخرى أنواع من الاختلاط بين الرجل والمرأة ، لا نستطيع أن نعبر عنه إلا بالدعارة والمجون والسفاح والفاحشة ، روى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء : فكان منها نكاح الناس اليوم ، يخطب الرجل إلى الرجل وليته فيصدقها ثم ينكحها ، ونكاح آخر : كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمئتها أرسلني إلى فلان فاستبضي منه ، ويعتزلها زوجها ولا يمسه أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إن أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد ، فكان هذا النكاح يسمى نكاح الاستبضاع ، ونكاح آخر : يجتمع الرهط دون العشرة . فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها . فإذا حملت ، ووضعت ومرت ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم ، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها ، فتقول لهم : قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت ، وهو ابنك يا فلان ، فتسمي من أحبت منهم باسمه فيلحق

به ولدها ونكاح رابع: يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها. وهن البغايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات، تكن علماً لمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت فوضعت حملها جمعوا لها، ودعوا لهم القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاطه ودعى ابنه، لا يمتنع من ذلك، فلما بعث الله محمداً ﷺ هدم نكاح أهل الجاهلية كله إلا نكاح الإسلام اليوم^(١).

وكانت عندهم اجتماعات بين الرجل والمرأة تعقدتها سفار السيوف، وأسنة الرماح، فكان المتغلب في حروب القبائل يسي نساء المقهور فيستحلها، ولكن الأولاد الذين تكون هذه أمهم يلحقهم العار مدة حياتهم.

وكان من المعروف في أهل الجاهلية أنهم كانوا يعددون بين الزوجات من غير حد معروف ينتهي إليه، وكانوا يجمعون بين الأختين، وكانوا يتزوجون بزوجة آبائهم إذا طلقوها أو ماتوا عنها (سورة النساء ٢٢، ٢٣) وكان الطلاق بين الرجال لا إلى حد معين^(٢).

وكانت فاحشة الزنا سائدة في جميع الأوساط، لا نستطيع أن نخص منها وسطاً دون وسط أو صنفاً دون صنف، إلا أفراداً من الرجال والنساء ممن كان تعاضم نفوسهم بأبى الوقوع في هذه الرذيلة، وكانت الحرائر أحسن حالاً من الإماء والطامة الكبرى هي الإماء، ويبدو أن الأغلبية الساحقة من أهل الجاهلية لم تكن تحس بعار في الانتساب إلى هذه الفاحشة، روى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قام رجل فقال: يا رسول الله إن فلاناً ابني، عاهرت بأمه في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «لا دعوة في الإسلام، ذهب أمر الجاهلية. الولد للفراش وللعاهر الحجر»، وقصة اختصام سعد بن أبي وقاص وعبد بن زمعة في ابن أمة زمعة - وهو عبد الرحمن بن زمعة - معروفة^(٣).

وكانت علاقة الرجل مع أولاده على أنواع شتى فمنهم من يقول:

إنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض

(١) أبو داود، كتاب النكاح، باب وجوه النكاح التي كان يتناكح بها أهل الجاهلية.

(٢) نفس المصدر باب نسخ المراجعة بعد التطليقات الثلاث. وهذا الذي ذكره المفسرون في سبب نزول قوله تعالى: ﴿الطلاق مرتان﴾.

(٣) أبو داود باب الولد للفراش.

ومنهم من كان يئد البنات خشية العار والإنفاق، ويقتل الأولاد خشية الفقر والإملاق (القرآن ٦ - ١٥١، ١٦ - ٥٨، ١٧، ٥٩ - ٣١، ٨١ - ٨)، ولكن لا يمكننا أن نعد هذا من الأخلاق المنتشرة السائدة، فقد كانوا أشد الناس احتياجاً إلى البنين، ليتقوا بهم العدو.

أما معاملة الرجل مع أخيه وأبناء عمه وعشيرته فقد كانت موطدة قوية، فقد كانوا يميون للعصبية القبلية، ويموتون لها. وكانت روح الاجتماع سائدة بين القبيلة الواحدة تزيدها العصبية، وكان أساس النظام الاجتماعي هو العصبية الجنسية والرحم، وكانوا يسرون على المثل السائر «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» على المعنى الحقيقي، من غير التعديل الذي جاء به الإسلام من أن نصر الظالم كفه عن ظلمه، إلا أن التنافس في الشرف والسؤدد كثيراً ما كان يفضي إلى الحروب بين القبائل التي كان يجمعها أب واحد، كما نرى ذلك بين الأوس والخزرج، وعبس وذبيان، وبكر وتغلب وغيرها.

أما العلاقة بين القبائل المختلفة فقد كانت مفككة الأوصال تماماً، وكانت قواهم متفانية في الحروب. إلا أن الرهبة والوجل من بعض التقاليد والعادات المشتركة بين الدين والخرافة ربما كان يخفف من حدتها وصرامتها وفي بعض الحالات كانت الموالة والحلف والتبعية تفضي إلى اجتماع القبائل المتغايرة، وكانت الأشهر الحرم رحمة وعاوناً لهم على حياتهم وحصول معاشهم.

وقصارى الكلام أن الحالة الاجتماعية كانت في الحضيض من الضعف والعمية فالجهل ضارب أطنابه، والخرافات لها جولة وصوله والناس يعيشون كالأنعام، والمرأة تباع وتشترى وتعامل كالجمادات أحياناً، والعلاقة بين الأمة واهية مبتوتة، وما كان من الحكومات فجعل همته امتلاء الخزائن من رعيته، أو جر الحروب على مناوئها.

الحالة الاقتصادية:

أما الحالة الاقتصادية، فتبعت الحالة الاجتماعية، ويتضح ذلك إذا نظرنا في طرق معاش العرب. فالتجارة كانت أكبر وسيلة للحصول على حوائج الحياة، والجولة التجارية لا تيسر إلا إذا ساد الأمن والسلام، وكان ذلك مفقوداً في جزيرة العرب إلا في الأشهر الحرم، وهذه هي الشهور التي كانت تعقد فيها أسواق العرب الشهيرة من عكاظ وذبي المجاز ومجنة وغيرها.

وأما الصناعات فكانوا أبعد الأمم عنها ، ومعظم الصناعات التي كانت توجد في العرب من الحياكة والدباغة وغيرها كانت في أهل اليمن والحيرة ، ومشارف الشام ، نعم كانت في داخل الجزيرة الزراعية ، والحراث ، واقتناء الأنعام ، وكانت نساء العرب كافة يشتغلن بالغزل ، لكن كانت الأمتعة عرضة للحروب ، وكان الفقر والجوع والعري عاماً في المجتمع .

الأخلاق:

لا ننكر أن أهل الجاهلية كانت فيهم دنيا وذرائل وأمور ينكرها العقل السليم ، ويأبأها الوجدان ، ولكن كانت فيهم من الأخلاق الفاضلة المحمودة ما يروع الإنسان ، ويفضي به إلى الدهشة والعجب ، فمن تلك الأخلاق .

١ - الكرم ، وكانوا يتبارون في ذلك ويفتخرون به ، وقد استنفدوا فيه نصف أشعارهم ، بين ممدوح به ومثن على غيره ، كان الرجل يأتيه الضيف في شدة البرد والجوع ، وليس عنده من المال إلا ناقته التي هي حياته وحياة أسرته ، فتأخذه هزة الكرم ، فيقوم إليها ، ويدبجها لضيفه ، ومن آثار كرمهم أنهم كانوا يتحملون الديات الهائلة والحملات المدهشة ، يكفون بذلك سفك الدماء ، وضياح الإنسان ، ويمتدحون بها مفتخرين على غيرهم من الرؤساء والسادات .

وكان من نتائج كرمهم أنهم كانوا يتمدحون بشرب الخمر ، لا لأنها مفخرة في ذاتها ، بل لأنها سبيل من سبل الكرم ، ومما يسهل السرف على النفس ، ولأجل ذلك كانوا يسمون شجر العنب بالكرم ، وخره ببنت الكرم . وإذا نظرت إلى دواوين أشعار الجاهلية تجد ذلك باباً من أبواب المديح والفخر ، يقول عنقرة بن شداد العبي في معلقته :

ولقد شربت من المدامة بعدما	ركد الهواجر بالمشوف المعلم
بزجاجة صفراء ذات أسرة	فرنت بأزهر بالشمال مقدم
فإذا شربت فإني مستهلك	مالي ، وعرضي وافر لم يكلم
وإذا صحت فما أقصر عن ندى	وكما علمت شائلي وتكرمي

ومن نتائج كرمهم اشتغالهم بالميسر ، فإنهم كانوا يرون أنه سبيل من سبل الكرم ، لأنهم كانوا يطعمون المساكين ما رجوه ، أو ما كان يفضل عن سهام الراجحين ، ولذلك

ترى القرآن لا ينكر نفع الخمر والميسر وإنما يقول: ﴿وإنهما أكبر من نفعهما﴾ [٢: ٢١٩].

٢ - ومن تلك الأخلاق الوفاء بالعهد، فقد كان العهد عندهم ديناً يتمسكون به، ويستهيون في سبيله قتل أولادهم، وتخريب ديارهم، وتكفي في معرفة ذلك قصة هانيء بن مسعود الشيباني، والسموأل بن عاديا، وحاجب بن زرارة التميمي.

٣ - ومنها عزة النفس وإباء عن قبول الخسف والضم، وكان من نتائج هذا فرط الشجاعة، وشدة الغيرة، وسرعة الانفعال، فكانوا لا يسمعون كلمة يشمون منها رائحة الذل والهوان إلا قاموا إلى السيف والسنان، وأثاروا الحروب العوان، وكانوا لا يبالون بتضحية أنفسهم في هذا السبيل.

٤ - ومنها المضي في العزائم، فإذا عزموا على شيء يرون فيه المجد، والافتخار لا يصر فهم عنه صارف، بل كانوا يخاطرون بأنفسهم في سبيله.

٥ - ومنها الحلم، والأناة، والتؤدة، كانوا يتمدحون بها إلا أنها كانت فيهم عزيزة لوجود، لفرط شجاعتهم، وسرعة إقدامهم على القتال.

٦ - ومنها السذاجة البدوية، وعدم التلوث بلوثات الحضارة، ومكائدها، وكان من نتائجه الصدق والأمانة، والنفور عن الخداع والغدر.

نرى أن هذه الأخلاق الثمينة - مع ما كان لجزيرة العرب من الموقع الجغرافي بالنسبة إلى العالم - كانت سبباً في اختيارهم لحمل عبء الرسالة العامة، وقيادة الأمة الإنسانية والمجتمع البشري؛ لأن هذه الأخلاق وإن كان بعضها يفضي إلى الشر، ويجلب الحوادث المؤلمة، إلا أنها كانت في نفسها أخلاقاً ثمينة، تدر المنافع العامة للمجتمع البشري بعد شيء من الإصلاح، وهذا الذي فعله الإسلام.

ولعل أعلى ما عندهم من هذه الأخلاق وأعظمها نفعاً بعد الوفاء بالعهد هو هزة النفس والمضي في العزائم، إذ لا يمكن قمع الشر والفساد، وإقامة نظام العدل والخير، إلا بهذه القوة القاهرة، وبهذا العزم الصميم.

ولهم أخلاق فاضلة أخرى دون هذه التي ذكرناها وليس قصدنا استقصاءها.